تقديم
أبو زيد المقرئ الإدريسي[1]

بسم الله الرحمٰن الرحيم

يأتي هذا الكتاب في سياق معرفي لا تخطئه عين القارئ المتبصر، فمضامين الكتاب ومحاوره ومراجعه المعتمدة ومنهجيته في التحليل والاستدلال تشير بهذا الهم المعرفي الخالص الذي يسعى إلى تجلية إشكالية من أعوص الإشكاليات اللغوية، وهي إشكالية طبيعة اللهجات الدارجة ونوع العلاقة التي تربطها باللغة الأصل ـ إن جاز التعبير ـ وبين بقية اللغات المتعايشة أو المتدافعة مع هذه اللهجات.

إلا أن هذا الهم المعرفي البارز والمميز لهذا العمل، لا يمنع ولا يحجب حضور هم مواز له، ومتساوق معه، وقد يكون

(١) مفكر إسلامي وأستاذ اللسانيات والنحو.

في الكتابات الجادة مثل هذا الكتاب، متكاملًا معه: إنه الهم السياسي خصوصًا والحضاري عمومًا. وهذا الهم حاضر في الكتاب من العنوان نفسه: «الصراع اللغوي».

لم يكتف الباحث الجاد، والكاتب المتميز، سلمان بونعمان بتناول هذه المعضلة المعرفية والسياسية من زاوية واحدة، وإنما ركب لها ثلاث زوايا، كل واحدة منها لو اقتصر عليها لوحدها، لكانت كافية لإقناع القارئ بجدية وخطورة الطرح الذي يطرحه الكتاب، لكن طموح الباحث وهمّته أَبت إلا أن تجمع العناصر الثلاث بطريقة مركبة ومتشابكة:

ـ **البعد المعرفي الأكاديمي** وهو الأساس، وقد تناول فيه الباحث بالنظر والتحليل، بالعرض والتفنيد، بالمناقشة والاستدلال، مختلف الدعاوى «العلمية» التي يطرحها دعاة الخطاب «التلهيجي». وذلك عبر تفكيك مقولاته وتفنيد حججه بدءًا من الحجة الأهم عندهم هي الحجة النفس ـ لغوية وهي حجة اللغة الأم، مرورًا بالإشكالات ذات الطابع التقني المحض، المتعلق بالظواهر الصوتية والصرفية والتركيبية (طبعًا عندما يقتضي المقام ذلك)، وانتهاء بالحديث عن الذرائع التربوية البيداغوجية من زعم لسهولة الدارجة ويسرها، وسرعة التعلم بها، وغير ذلك من الشعارات المكرورة والمعروفة. وقد أحسن الباحث نقدها وكشف باقتدار تهافتها على المستوى المعرفي العام واللساني الخاص.

ـ **البعد السياسي** وهنا يَمتاح الباحث من الكتابات المتخصصة في تتبع تاريخ الدعوة إلى الدارجة وكشف خلفياتها الاستعمارية، وبيان الأسماء المشهورة التي ارتبطت بها هذه الدعاوى من منصرين واستعماريين ومستشرقين وجواسيس، وقد لا يكون عمل الباحث هنا متميزًا عمن سبقوه، إلا أنه يُحسب له فضل استقصاء المصادر وتوثيق المعطيات وحسن تلخيص المعلومات والحقائق التي تفضح هذا المشروع الاستعماري منذ كان.

ـ **بعد المآلات** والإسقاطات المتوقعة للنتائج الكارثية لمشروع ترسيم الدارجة وتحويلها إلى لغة التدريس وإحلالها محل اللغة العربية الفصحى. وفي هذا المستوى يتميز الكتاب تميزًا حقيقيًا عن جل الكتابات التي سبقته، فيُحسن قراءة المستقبل الافتراضي، وفق فقه مآلات مضبوط، يستشرف الآثار المدمرة لغويًا وثقافيًا وأخلاقيًا لهذا الاختيار الاستعماري بامتياز، فيقف وقفة مشكورة على التخلف اللغوي الثقافي، والفوضى النسقية، والتفكك القيمي، وتهميش الفصحى، وصولًا إلى الغرض الاستعماري الصليبي الذي تشرئب إليه الأعناق وتَتَحلَّبُ له الأفواه وهو انقطاع الصلة مع التراث والقرآن. وهي مآلات أحسن الكاتب شرح مخاطرها، وتميز بقدرة إقناعية فذة على تمثلها مصيرا محزنًا وقاتمًا، لا قدر الله، للأمة العربية الإسلامية إذا هي اختارت السير في هذا الطريق الانتحاري.

إن المنطق الاستدلالي للباحث يَسْتَبينُ جيدًا طريقه، ولا

يفقد أبدًا بوصلته، على طول النسق الاستدلالي للكتاب: فالعمل لم ينزلق أبدًا إلى الحط من الدارجة، أو التنقيص منها، أو النظر إليها كما نُظر إليها في كثير من الدراسات، على أنها مجرد «لحن العامة»، أو انحراف لغوي، أو ظاهرة اجتماعية سلبية ينبغي مواجهتها، أو السعي لتقليل «أضرارها» بتوسيع مدى نفوذ الفصحى. وهو ما انزلقت إليه للأسف بعض الأعمال العاطفية أو المزاجية التي سلمت لدعاة الدارجة من أسلحة الرد والدحض، أكثر مما نافحت عن الفصحى.

لا ينتمي هذا السِفْر الذي بين أيدينا أبدًا إلى هذا المنطق المعوج والمردود، فهو لا ينتقد الدارجة في حد ذاتها كلغة أو كنشاط اجتماعي تواصلي، ولا ينظر إليها كخصم للفصحى، بل لا ينفك من النظر إليها كآية من آيات الله، وكنعمة من نعمه، وكأداة للتواصل الاجتماعي لا غنى عنها، حتى ولو لم يصرح بذلك علنًا في أغلب الأحيان. وإنما ينصرف إلى مكمن الداء وعمق المشكلة، وهو انحراف خطاب الترويج للدارجة، أو الخطاب التلهيجي كما سماه، الذي يتجه إلى محاولة ضرب الفصحى بالدارجة، وبناء تصور مغلوط عن إمكانية إبدال الفصحى بالدارجة، وتعويضها بها، في أفق الاستغناء عن الفصحى وهما وزعمًا، «لعمرك ليس بمزعم» كما قال الشاعر الجاهلي.

وهنا تكمن قوة الاستدلال، فالعربية الفصحى؛ ككل اللغات الفصيحة والعالمة، لا تعاني من منافسة وهمية من اللهجات الدارجة إلا في الأذهان المريضة لأعداء الفصحى الذين يختبئون

وراء حب مزعوم للدارجة، ووراء خطاب تغليطي تبسيطي اختزالي استسهالي، يروم الإيهام بأن معضلة ضعف المردودية التربوية للتعليم، وارتفاع نسبة الهدر المدرسي، واستعصاء الأمية على المحو، وغيرها من المعضلات اللغوية والتربوية البيداغوجية، إنما منشؤها هذا الحرص من قبل من يسمونهم بـ«التقليدانيين» على أن يكون للفصحى مكان في حياتنا المعاصرة، رغم الكلفة المادية والمعنوية العالية، في زعمهم، لهذا الاختيار الذي تركته الدول الأوروبية خلف ظهرها منذ أربعة قرون كما يرددون دائمًا.

ولسنا بصدد إسناد استدلالات الكتاب القيمة، وحججه الدامغة، بحجج واستدلالات إضافية، فهذا بعيد عن مقاصد هذه المقدمة الموجزة، وإنما غرضنا الإشارة فقط إلى أن السياق التاريخي لاستبدال اللغات الأوروبية باللغة اللاتينية أو الإغريقية، مخالف تمامًا في طبيعته ودواعيه ومآلاته، بل وروحه ومنطقه العام، اختلافًا جذريًا عن السياق المزعوم لدعاة ترسيم الدارجة والتدريس بها، وتحويل العربية إلى الموقع الذي تستحق معه الوصف الذي يكيلونه لها: «الكلاسيكية». وهو وصف لا يمكن إلا أن يستلزم تابعه ورديفه: «اللغة الميتة». حتى لو قصرنا على المعنى العلمي الضيق الذي يوحي به المصطلح في هذا السياق، وهو أنها لغة مكتوبة غير منطوقة. هذا دون بقية التداعيات الحضارية التي تعطي لمصطلحي كلاسيكية وميتة أبعادًا كارثية أخرى على اللغة العربية الفصحى، يتمناها دعاة الدارجة في قرارة أنفسهم وإن كانوا لا يجرؤون على التصريح بها خشية أن تنكشف نواياهم الاستعمارية.

قد يرى البعض أننا وصاحبَ هذا الكتاب، وأضرابنا من الذائدين عن الفصحى من أمثال مصطفى صادق الرافعي وأنور الجندي ومحمد محمود شاكر وعبد العلي الودغيري وإدريس الكتاني وعبد الصمد بلكبير وغيرنا، نبالغ في الخوف على مصير الفصحى، وقد رُبطت بالقرآن ربطا مصيريا، بوعد الله الذي لا يُخلف الميعاد، أن يحفظ القرآن فيُعمل مقتضى هذا الحفظ ولازمه، وهو أن يحفظ اللغة التي أُنْزِل بها. وهذا صحيح لا جدال فيه، ولا يراود أمثالَنا أدنى شك في أن العربية الفصحى محفوظة بحفظ القرآن الكريم، إلا أن مكمن الخطر هو في تصور أن حفظ اللغة العربية، يستلزم بالضرورة أن تُحفظ لنا نحن الناطقين بها في العالم العربي، وهذا موضع شك كبير إذا نحن فرطنا فيها وضيعنا ملكة استعمالها، وانجرفنا وراء دعاوى الخطاب التلهيجي، واستسلمنا للخَدَر اللذيذ؛ لأن الله حافظها بحفظ القرآن.

إن حفظ الفصحى لا يستلزم بالضرورة أن تُحفظ لكل شعب من الشعوب العربية، أو لكل فرد من أفراد هذه الشعوب، إذ هم جميعًا تسري عليهم السنن الكونية التي بمقتضاها يُضيع على المُفَرّط ما فَرط فيه واستهان به، وها هم عرب المهجر على سبيل المثال قد انقرضوا لغويًا وثقافيًا في بلاد الله النائية كأستراليا وأمريكا اللاتينية عندما طال عليهم الأمد، ونأت بهم الشُقة، وأخذتهم غفلة الزمان. وما مسلمو المهجر في أوروبا وشمال أمريكا ولا نحن معهم بمنجاة من هذا المصير المحزن ـ لا قدر الله ـ إذا نحن فرطنا في اللغة العربية ففرطت فينا جزاءً وفاقًا.

إن الهجمة الأنكلوفونية على اللغة العربية في بلاد الخليج وبقية الشرق الأوسط، والتي لا تقل ضررًا وخطرًا عن الهجمة الفرنكفونية على العربية في شمال إفريقيا وبقية بلاد العرب، لا تُبشر بخير ولا ينفع معها الاستجداء الحالم لقدر الحفظ الرباني الذي يخص به القرآن وحده ولم يقصد به أبدًا أهل القرآن الذين عليهم أن يُشمروا على ساق الجد إذا هم أرادوا أن يحفظوا على أنفسهم قدراتهم اللغوية، شأنهم في ذلك شأن بقية أمم الأرض، في ارتباط مصيرها بمصير لغاتها العالمة. حتى يكون لهم مكان تحت الشمس ويكون لأبنائهم مستقبل بين الأمم. إنها سُنَّة الله في الكون التي لا تحابي أحدًا ولا تميزه عن غيره من بقية خلق الله فهم جميعا سواء أمام القانون الإلٰهي الصارم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

شكر الله للأستاذ الباحث المجد سلمان بونعمان، هذا العمل المتميز الذي لا يُغني عنه أي كتاب في الموضوع، وإن كان يُغني المُبتدأ عن كثير من الكتب التي صدرت في الموضوع بسبب تشعبها أو تناولها لقضايا جزئية، أو انزلاقها إلى رؤية غير سديدة. ناهيك عن كتب القوم الذين يروجون للدارجة بديلًا عن العربية وندًا وخصمًا لها، هذه الكتب يصلح هذا العمل سلاحًا فعالًا في وجهها يكشف تدليسها وتضليلها وتحريفها للكلم عن مواضعه. ولعل الله شاء بقدره اللطيف أن يصدر في سياق تجدد هذه الهجمة التي يراد للمغرب أن يكون منطلقها، تحت دعاوى

معلومة وغيرة مزعومة، على ألا تتوقف عند حدوده الترابية الغالية، فأمل القوم إن نجحوا لا قدر الله في مخططهم الحالي، أن يعمموه على بقية البلاد العربية في شمال إفريقيا، ثم بقية العالم العربي والإسلامي. ونحن لا نستغرب من دعوات تطالب بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الدارجة، بزعم تيسير قراءته على العوام، وكأن الدارجة مكتوبةً تنطق حروفها بنفسها، ستسمع الناظر إلى سطورها دون أن يحتاج إلى تعلم حروف الهجاء وتلك لعمري مغالطة بليدة، تكفي لوحدها لبيان عبث القوم بعقول الناس.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

الدار البيضاء، المغرب ـ بتاريخ: ٠٧ ـ ١٢ ـ ٢٠١٣م